الثورة
الجمعة 5 ربيع الثاني 1434هـ 15 فبراير 2013م العدد (17620)

الأخلاق بين المجتمع والدولة

هائل سعيد الصرمي

إن الأخلاق الحسنة هي: معنى وسر تماسكها وتآزرها وانسجامها... بها تغدو الحياة متناغمة مستقرة ، ليس بين بني الإنسان فحسب ، بل وبين بقية المخلوقات أيضاً.

إن إقامة جسور الأخلاق الحسنة بين البشر ، معناه: انسجام الحياة بمكوناتها وقوانينها وسننها ، في تناغم وألفة عجيبة ، تسخر لبني الإنسان ، فتلتقي المتنافرات وتنسجم المتباينات في أنس ومحبة.. فلا خوف ولا اضطراب ولا بؤس ولا شقاء ... فما الذي سيقبض مضاجعها إذا كان لا يوجد طمع ولا جشع ولا كبر ولا غرور ولا جور ولا طغيان ولا كذب ولا شح ولا نهب ولا إرهاب ...بل هناك صدق ومحبة وعدل ورضا ورفق وإخاء وإخلاص وعمل! تلك هي الحضارة الحقيقية والسعادة الغائبة.

إن الأخلاق، هي: مصدر الأنس في أعماق الإنسانية ، بل هي: الغاية التي أرادها الله من عباده ،في عمارة الأرض وتعبيد أنفسهم لله من أجل سعادتهم في الدنيا والآخرة.

إن تكامل الأخلاق في المجتمع معناه: عمارة الأرض وتحقيق الحضارة الإسلامية المنشودة، التي يسعد العالم بإقامتها ويخسر بغيابها.

فالتطور الحضاري يقوم على أساس منظومة من القيم التي تهدف إلى تكريم الإنسان. ولأن الأخلاق في أبسط غاياتها ، هي: تحقيق السعادة للفرد والمجتمع والدولة. والحضارة كذلك في أبسط غاياتها هي: تكريم الإنسان وتحقيق السعادة. فلا سعادة بغير كرامة ولا كرامة بغير أخلاق. إذن يجوز لنا أن نقول الحضارة هي الأخلاق.

يقول د /محمد ظفر الله خان: «إن سياج الحضارة الإسلامية هو الدين والأخلاق، فمبادئ الأخلاق تتدخل في كل نظم الحياة وفي مختلف أوجه نشاطها سواء في السلوك الشخصي أم في السلوك الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي. ومن المحال إقامة النظام الصالح أو المجتمع الفاضل من دون أخلاق وقيم شريفة، وهذه القيم ونحوها هي صمام أمان يكفل دوام الحضارة ويمنع انحرافاتها وتعثرها بدليل قيام الحضارة الحديثة عليها في مبدأ الأمر وتعرضها للإفلاس والانهيار في شرخ قوتها عندما طغت عليها الصفة المادية»)

إن الحياة التي تشملها الأخلاق لابد أن تتطور وبتطورها تتطور الحياة وتترقى الإنسانية وهذا هو ما يسمى التطور الحضاري المنشود الذي يحقق النفع والسعادة للبشرية فكل تطور يثمر عملاً نافعا للناس يصبح ذا قيمه حضارية.

فالإنسان نفسه يتطور من مرحلة إلى مرحلة وتتطور معه قدراته وإبداعاته وإنتاجياته فهو يتطور حضاريا فكل شخص نافع لنفسه وغيره له قيمة حضارية والعكس وما أشبه تطور حضارة أمة

بإنسان يتطور مع فارق التشبيه فمن الناس من يتطور تطورا سويا وبقدر قيمه وإنتاجه ونفعه وتأثيره تكون قيمته الحضارية بحسب تطوره وإنتاجه وعطائه والناجحون من الناس متفاوتون في ذلك وكذلك الحضارات بقدر تمثل الحضارات لقيمها وإنتاجها وتأثيرها ونفعها تكون نسبة قيمتها الحضارية فكل حضارة بحسب ذلك

يقول صاحب كتاب الحضارة الدكتور حسين مؤنس وهو يتحدث بأن الحضارة ليست بالقصور ولا بناطحات السحاب يقول :إن رغيف الخبز أنفع للبشر من صعود القمر.

إن أرقى فترة حضارية في تاريخ البشرية ، تحققت فيها السعادة لأفرادها، هي: فترة الرعيل الأول (مجتمع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والصحابة رضوان الله عليهم) ثم الذين يلونهم ؛ لسمو الأخلاق التي تجسدت في تلك الفترة ؛ ليس بالضرورة أن تتحقق السعادة إن تحققت الرفاهية ، لكن بالتأكيد تتحقق السعادة في مجتمع تتجسد فيه الأخلاق العامة والخاصة ، الفردية والجماعية ، وإن كان مجتمع غير مرفه .

ضحية الأُسرة المتفسخة!!

لقاء وسرد / فايز محيي الدين

بداية الحكاية حين تزوّجَ والدُ (ب – و) من أُمّه التي تصغرهُ بحوالي عشرين عاماً، حيثُ ظلَّ وقتاً طويلاً بدون زواج حتى وصلَ به العمرُ إلى حوالي الأربعين من عمره، لأنّهُ كان عنّيناً أي لا يصلح للزواج وليس للنساء به حاجة.

ورغم أنّهُ كان ميسور الحال في عيشه ويستطيع الزواج إلّا أنّ شهرتَهُ بالعنّين التي أشاعها رفقاء صباهُ كانت قد سبقته وطارت في الآفاق وأضحى كلّ من في المنطقة يعرف أنّ فلاناً الذي هو والد (ب– و) لا يصلح للنساء لأنّهُ حسب التسمية في المنطقة (خرنثى) أي لا ذكر ولا أنثى..

بعد أن أكمل دراسة الثانوية اتّجهَ لإحدى دول الجوار للغربة، لا لعوز للمادة أو حاجة للمال وإنّما للهروب من واقعه المأساوي الذي يصليه ويجلدهُ كل يوم بأسئلة كبار السن والعجائز الذين يحبّون فيه طيبتَهُ وعدم مؤاذاته أحدا.. ولهذا كانوا يستعجلون زواجَهُ ويريدون أنْ يروهُ مستقرّاً بأسرة كبقية الشباب الذين بسنّه، وغالباً كان أولئك المسنّون لا يصدّقون ما يُقالُ عنهُ من أنّهُ لا يصلحُ للنساء.

حين ضاق به الحال قرّرَ السفر والاغتراب،ليهرب من واقعه وينسى مأساته..وفي بلاد الغربة استطاع التخلّص من ذلك الكابوس الذي كان يلازمه طوال الوقت في بلاده،لكن مهما طالت بالإنسان الغربة فلابُدَّ من عودته إلى مسقط رأسه، لأنّ الحنين للأوطان شيءٌ فطري لا يمكن التخلّص منه بسهولة..

عاد والد (ب– و) من الغربة بعد أن استغلّ تواجده في ذلك البلد المجاور وعرض نفسَهُ على طبيب أجزاء تناسليّة بيَّنَ لَهُ أنّ بمقدوره إجراء عمليّة ليست بالصعبة يتم من خلالها تصحيح الاعوجاج في عضوه الذكري، حيثُ كان بائناً وواضحاً، فقط التحمَ بما يجاورهُ من لحم بسبب الطريقة البُدائيّة التي استُخدمَتْ في ختانه وعدم تنظيف مكان الختان عقب العمليّة،

وحين كان يشاهدهُ أقرانُهُ أثناء السباحة في البركة أو وقت تدفّق الشلّالات في الصيف اعتبروهُ عنّيناً لأنّهم كانوا يشاهدون عضوَهُ الذكري لا يشبه أعضاءهم، وبنظرتهم ا لطفو ليّة ا لقا صر ة أشاعوا في القرية أنّهُ (خرنثى).

ولهذا نصحه بالسفر لإحدى الدول الغربية حيث أجرى عمليّة تكلّلَتْ بالنجاح.

بعد عودته أسرَّ بما عملَه في الخارج من عملية تصحيح عضوَهُ الذكري وأنّهُ يريد الزواج، فنصحَهُ بعض أقربائه من الزواج بأُمِّ (ب– و) التي كما سلَفَ كانت تصغرهُ بعشرين عاماً، وكانت لا تزال في قمّة وهجها الأنثوي البكر، وهو عدّى الأربعين وأضحى غير قادر على إشباع غرائزها الملتهبة،وفي نفس الوقت كانت ترى أنّهُ ليس فتى أحلامها وليس ذاك الرجل الذي ظلّت تبني لهُ قصوراً في مخيّلتها، زِدْ على أنّ فتيات القرية وشبابها كانوا يُعيّرونها بالزواج من فلان الـ(خرنثى).. تحت إلحاح والديها وبإغراء مادي كبير من وال (ب– و) تزوّجته، ورغم أنّهُ لم يقصّر كثيراً بواجبه كزوج،لكن ما كان قد رسخَ في الذهن قد رسخ، فهي كانت تظنُّ أنَّ ما عند الرجال الآخرين أفضل مما لدى زوجها،ولهذا لم تكن مقتنعَةً به،وظلّتْ تُصرُّ عليه للاغتراب رغم أنّهم لم يكونوا بحاجة ماسّة لعودته للغربة..

تحتَ إلحاحها الشديد وانطلاقاً من حُبِّه الجنوني لها عاد للغربة،وهي استغلّت الفراغ في مغازلة أحد شُبّان القرية ودخلت معه في علاقة غير مشروعة،حتى فاحت ريحتهما غير المرحّب بها من كل أهل القرية فاتصلوا بزوجها وأخبروهُ فعاد مسرعاً لتستقبله برحابة صدر ولهفة عظيمة أنستهُ كل ما قيلَ عنها، عندها سمعَ فقط لنداء قلبه وكذّبَ كل أهله وأهل القرية، وظنّ أنّهم يحسدونه على زوجته الحسناء صغيرة السن.. عندها فقط قرّر التخلّص من كلامهم ونكدهم ونفّذ ما اقترحت عليه وهو السكن في المدينة،وهناك بدأت صفحة جديدة في قاموس هذه العائلة التعيسة، فبمجرّد وصولهم المدينة أنجبت لَهُ بنتاً وبعدها (ب– و) وزوجها كان يقضي معظم السنين والأشهر في الغربة،وهي استغلّت ذلك الفراغ للهو والعبث كما تشاء.

في ظل هذه الأُسرة التي يعصفُ بها اللّهو والتفلُّت نشأَ (ب– و) الذي كان ضحية هذا الوقع المرير، حيثُ كان يشاهد أُمَّهُ مِراراً عديدة وهي في سلوكيّات مشينة،ولا يستطيع أن يزجرها لأنّها كانت تبادرهُ بالضرب الشديد حتى استسلمَ لواقعه ورضيَ به،خاصةً وهي قد بدأتْ تستخدم معهُ سلاحاً آخر هو الإغراء المادي ومن ثمّ حين شبَّ وبلغَ مبلغ الرجال أتاحت له الفرصة بالطول والعرض للعبث والسهر خارج المنزل، فكان ذلك منها تنازلاً مقابل تنازل.

في ظِل هذه الأجواء نما (ب– و) وعاقرَ كل الأشياء السيئة،في مقدّمتها إدمان المخدّرات والسُّكر والعلاقات المحرّمة..عاش مراهقته – كما قالوا – بالطول والعرض، وحين صحا داخله الضمير وبدأ يعي ما هو فيه من واقع مُخجل،جاءَهُ من دفعَهُ أكثر للقيام بفعلته الشنيعة حين تخاصم مع أحد المدمنين الذين أوقعوهُ في الإدمان بتحريض من والدته، فعايرَهُ بأمّه وأعمالها، فما كان من (ب– و) إلّا أن عاد موتوراً مغتاظا وحاول قتل أمّه،لكن الطلقة الأولى وقعت في أخته التي حاولت فضّ الشجار بينهما فارتمت على الأرض فوراً وهو عاد للأم وأطلق عليها سبع طلقات متفرّقة وزاد مثلها لأخته التي كان يطلق عليها الرصاص وهو يقول: أنتي مثل أمش..وإذا لم أقتلك ستحترفين نفس عملها.

أجهزَ عليهما الاثنتين ولاذَ بالفرار، ولا يزال والده ومعارفه حتى اليوم لا يعرفون له طريقاً أو مكانا،رغم أنّهُ مرَّ على الجريمة البشعة أكثر من ثلاثة عشر عاما.

الجميع ممن عرفهم وحكى لنا تفاصيل حكايتهم يؤكّد أنّ السبب الأوّل يعود لعدم التكافؤ في سن الزواج،والسبب الثاني هو الاغتراب وترك الأُسرة دون رعاية مباشرة،لأنّ المال ليس كل شيء،بل هو في كثير من الأحيان السبب المباشر لفساد العديد من الأسر.

القوانين الدولية المعاصرة اتفقت مع الشريعة الإسلامية في محاربة الظاهرة

«زواج الصغيرات».. قضية رأي عام يرفضها المجتمع

الدين والحياة / محمد المصباحي

بقيت أمل في انتظار «الأمل» من القاضي ليحكم لها بالطلاق من زوجها «أحمد» الذي يكبرها بما لا يقل عن ٥٠ عاما، وهي لم تزل في العاشرة من عمرها.

ومع أن معيشة «أمل» اختلفت عما كان في بيت والدها كزوجة «ارستقراطية» تعيش حاليا بين الخدم والحشم، والأثاث الفاخر والسيارات المرفهة، إلا أنها لم تجد الراحة النفسية، حسب قولها، فأرشدتها إحدى صديقاتها بالتوجه إلى المحكمة لينظر القاضي في وضعها.

قصة أمل وأمثالها من الصغيرات تحولت في زمن قياسي إلى «ظاهرة»، بسبب حب التمتع من الأزواج، وتطلع الآباء إلى المال، والضحية هن «أمل» ومن على شاكلتها من الفتيات الصغيرات، حتى أصبحت أروقة المحاكم لا تخلو من قضية يومية على الأقل عند كل قاضٍ داخل المحكمة الواحدة.

الظاهرة التي أصبحت قضية رأي عام، رفضها المجتمع وقاومها بصوت عال، كما يوضح ذلك المحلل النفسي ومستشار العلاقات والشؤون الأسرية والمجتمعية الدكتور هاني الحميدي، الذي أشار إلى أنها «ظاهرة عانت منها العديد من المجتمعات العربية والإسلامية، بحجة أن تزويج البنت القاصر هو نوع من أنواع العفاف والحصانة، وتخلص من مسؤولية الشرف حسب وجهة نظر البعض من الآباء».

زواج الغبطة

الكثير من البلدان وضعت حدا من زواج الصغيرات، وغالبا ما ترجع في قوانيها إلى بلوغ الفتاة الحلم، وهو ما يؤكده أستاذ علم الاجتماع الدكتور أبو بكر باقادر، إذ أوضح أن تلك القوانين «عادة ما ترجع في تحديد البلوغ إلى الاكتمال الجسماني والقدرة على الإنجاب، مع عدم إغفالها الناحية القانونية، كأن تكون الفتاة قد بلغت الحلم»، مشيرا إلى أن «البلوغ في معظم بلدان العالم ليس تقديريا، بل يجعلونه في سن الثامنة عشرة فما فوق».

وتتفق القوانين الدولية في الوقت المعاصر مع ما جاءت به الشريعة الإسلامية قبل ١٤ قرنا، وهو ما يبينه أستاذ الفقه المقارن في قسم الدراسات العليا الدكتور صالح بن غانم الذي يؤكد أن «الشريعة الإسلامية لا تحتاج للمنظمات الحقوقية لتقنين العمر لزواج الفتاة، فهو مقرر شرعا».

وأكد الدكتور بن غانم أن «الفتاة غير البالغ ليس لوليها أن يزوجها حتى تبلغ وترضى، مع أن بعض العلماء استثنوا الأب في تزويجها دون سن البلوغ، إذا كان ذلك من يتقدم لها للزواج «غبطة»، أي لن يتقدم بعده أفضل منه، لكنهم اشترطوا عدم الدخول بها إلا بعد بلوغها سن الرشد، بشرط أن تستشار فإذا وافقت يمضي العقد، وإذا رفضت فهذا من حقها»، موضحا أن زواج الرسول صلى الله عليه وسلم من أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ يعد «زواج غبطة»، لأن الزواج من النبي عليه الصلاة والسلام فرصة لا تضيع.

طلاق مبكر

ويعلق أستاذ علم الاجتماع الدكتور أبو بكر باقادر على حديث الدكتور بن غانم بتوضيحه أن «بعض العلماء يرون أن ولي الأمر يستطيع أن يعقد نيابة عن وليته إذا كان مخولا بذلك شرعا، لكن المجتمعات الإنسانية تؤكد أن الظروف والملابسات والأوضاع الاجتماعية والظروف النفسية والصحية تقتضي أخذ الحيطة والحذر، خاصة أن أعباء ومسؤوليات الزواج تقتضي نوعا من النضج، وليس المسألة فقط إجراء قانوني أو شرعي، والفتاة قاصر وغير قادرة على اتخاذ العديد من القرارات خصوصا العاطفية منها»، مبينا أن «الكثير من الناس يرون أن القاصر ليس لها الحق في إبداء رأيها في زواجها، فولي أمرها هو من يتخذ القرار، فتجد لديها نظرة تخوف من هذا الزواج»، داعيا إلى النظر إلى المجتمعات المتساهلة في هذا الأمر، حتى أصبح هناك أمهات قاصرات، ولديهن الكثير من المشكلات.

وطالب باقادر الأولياء بتحقيق الحد الأدنى من الاطمئنان إلى حياة ناجحة في الزواج المبكر، مشيرا إلى أن بعض الدراسات أثبتت أن زواج القاصر قد يؤدي إلى طلاق مبكر، لعدم نضج الفتاة، وضعف القدرة على التصرف والسلوك، لما له من تبعات سيئة على الأطفال.

انحدار عكسي

وبالعودة إلى الدكتور هاني الحميدي للحديث عن الآثار النفسية للزوجة القاصر، فيوضح أن تلك الصغيرة «لا تستطيع أن تفهم الواجبات والمتطلبات الزوجية نفسيا وعاطفيا، فتتحول الممارسة عند بعضهن إلى تعذيب جسدي يفوق التحمل، مما يؤدي إلى عدم الوصول إلى الإشباع الفطري لديها، فتتأثر الذات لديها، ويؤدي ذلك إلى فقدان الإحساس بالأنا، وتبقى تبحث بشكل مستمر عن طرق للتخلص مما هي فيه من عذاب نفسي شديد بالهروب أحيانا، أو ربما يصل الأمر لدى البعض إلى التفكير في الانتحار وإنهاء حياتها التي فقدت المعنى الكبير لها حسب عقلها وتفكيرها، وما تعيشه من وضع يفوق تكوينها النفسي الذي مازال في طور النمو ولم يصل بها بعد إلى الجاهزية النفسية والعقلية التي تسمح لها بتداول أمور العاطفة والجنس بالشكل الذي يتناسب مع التطور في شخصيتها حينما تبلغ السن الذي يبدأ فيه الجسد والعقل والنفس بطلب التفعيل لهذه الجوانب في العمر الصحيح»، مشيرا إلى أن بعضهن يذهبن إلى «الانطوائية والتقوقع أو الدخول في حالات اكتئاب مزمن، جراء تحمل مسؤوليات الحمل والولادة في سن مازالت فيه لم تخرج من مرحلة الطفولة لتواجه مسؤوليات تفوق خبراتها في التعامل مع أمور وواجبات ومسؤوليات كبيرة، منها: روح مولود هي المسؤولة بشكل مباشر عن التعامل معه بما يبقيه حيا»، مؤكدا أنه «بسبب تحمل تلك المسؤوليات تفقد تلك صغيرة الإحساس بالأمان وتتردد في اتخاذ ما يناسب من قرارات حيال تلك المسؤوليات، لعدم وجود الثقة اللازمة للتعامل مع هكذا مسؤوليات، مما يؤدي أحيانا إلى حصول أخطاء تتسبب في فقدانها لحياة طفلها على سبيل المثال، أو التسبب في حصول عاهة له بسبب عدم الدراية أو الإهمال غير المقصود، وبالتالي تعلق تلك الحادثة في عقلها الصغير مما يجعلها تعيش عذابا مستمرا من تأنيب للضمير وإسقاط المسؤولية على نفسها».

رفض الظاهرة

أما فضيلة الشيخ يحيى النجار رئيس مؤسسة الإرشاد الاجتماعي فيرفض مقارنة زواج الصغيرات المنتشرة في الفترة الأخيرة بزواج عائشة، رضي الله عنها، من النبي صلى الله عليه وسلم وهي في التاسعة من عمرها، مبنيا أن أبا بكر، رضي الله عنه، عندما أراد أن يزوج عائشة لم يجد أفضل من الرسول صلى الله عليه وسلم لتزويجها ابنته، مشيرا إلى أنه «لا يمكن أن يقاس تزويج الأطفال اليوم بزواج أمنا عائشة رضي الله عنها لعدم تطابق الشروط والمناخ».

وأكد النجار أن زواج الأطفال أو الصغيرات تترتب عليه مضار نفسية واجتماعية، مطالبا العلماء والدعاة القيام بواجبهم بالنصح والتوعية بخطورة مثل هذه الزيجات، والمضار العديدة المترتبة عليها والتي تؤدي إلى تقويض بناء الأسر المسلمة.

موضحا أنه «ينبغي لأولياء الأمور أن يتقوا الله في أطفالهم ولا يقدموا على تزويجهم وهم ما زالوا صغارا، لأن الزواج مسؤولية ومن الخطأ تحميل الطفلة مسؤولية أكبر منها، وبالتالي تترتب على هذا الزواج مضار نفسية واجتماعية عديدة، لذلك ينبغي أن تؤجل الزيجة حتى تبلغ الزوجة وتنضج عقليا وبدنيا وتستطيع تحمل المسؤولية».